أصول المنهج التجريبي عند ابن خلدون

أ/زازوي موفق جامعة تلمسان

تقوم الدراسات العلمية على ضرورة اعتماد **منهج** يضمن الموضوعية في ترتيب المقدمات ويضمن سلامة المعايير في المساءلة النقدية.

ومن عجب أن تاريخ الفكر العربي الإسلامي حرص على صرامة المنهج في كل مجالات المعرفة الإنسانية والدينية.

ومن يقرأ مقدمة ابن خلدون يجده مثالا بارزا للمعرفة المنهجية.

الإشكالية:

يكاد يغلب على ظن الكثيرين أن اعتماد المنهج التجريبي يؤول إلى الحضارة الغربية حين جادلت المنطق الأرسطي وتمردت على السفسطائيين. وتنسب الدعوة إلى المنهج التجريبي إلى المفكر الانكليزي فرانسيس بيكون.

ويغالط بعض ناقدي الحضارة العربية أنها أغرقت في الغيبيات ولم تعرف المنهج التجريبي إلا حديثا بعد التأثر بالحضارة الغربية.

فهل يصدق مثل هذا الادعاء إذا استدعينا نصوص ابن خلدون للشهادة المعرفية؟

بل كيف حرص ابن خلدون على تبني المنهج التجريبي في مسائل المقدمة؟

أسباب الاختيار:

ليس أفضل من ابن خلدون شاهدا على مثل هذه المساءلات النقدية وذلك لأسباب عديدة أهمها:

- ثبات نصوص المقدمة له.إذ لا يمكن الادعاء بأنها منسوبة إليه.
- انتسابه إلى مجال الحضارة العربية الإسلامية. فقد كان قاضيا للقضاة.
- إعلانه رفض الفلسفة اليونانية بناء على رأيه في تمايز الثقافات.

- رده المسائل الظنية في –المقدمة– إلى الوقائع العمرانية.
- كتابته فصلا عن المنهج التجريبي وكيفية حدوثه.

مفردات البحث:

تقوم سلسلة الأفكار في هذه المداخلة على المفردات التالية:

1/ في فهم المنهج التجريبي.

2/ في دعوة ابن خلدون إلى المنهج التجريبي.

3/ في توظيف ابن خلدون للمنهج التجريبي.

4/ في إثبات أن المنهج التجريبي من خصوصيات المعرفة الإسلامية.

1 في فهم المنهج التجريبي:

لا يستطيع العقل أن يتوصل إلى مطلوبه إلا إذا تمكن بصحيح النظر أن يتبع في سيره طرقا منظمة، ولولا إتباعه هذه الطرق المنظمة لسار على غير هدى، ولظل السبيل من غير أن يصل إلى غاية ما. يقول ديكارت: خير لك أن تترك البحث عن الحقيقة من أن تبحث عنها بغير طريقة. من هنا تظهر أهمية الطريقة في البحث العلمي إذ تعرف على أنها: "الوسيلة الفكرية التي يمكن التوصل بها إلى المطلوب، والمطلوب في العلم هو الكشف عن الحقيقة والبرهان عليها"[1]. ولذلك فنجاح العلماء في الوصول إلى اكتشافات علمية إنما يعود إلى الطريقة أو المنهج المتبع، وقصورهم في ذلك لاشك أنه يعود إلى الطرق الفاسدة التي تسلك لا إلى فقدان عبقريتهم أو نقص تفكيرهم.

وما وصلت إليه العلوم التجريبية اليوم من قطعها لأشواط كبيرة وتحقيقها لنتائج ظاهرة إنما يعود إلى منهجها العلمي.وقد اتفق العلماء على تعريف المنهج بأنه: "تحليل منسق وتنظيم للمبادىء والعمليات العقلية والتجريبية التي توجه بالضرورة البحث العلمي أو ما تؤلفه بنية العلوم خاصة"[2].وقد حددت خطوات هذا المنهج حديثا على يد العالم الانجليزي فرانسيس بيكون، عندما دعا إلى تصور جديد للعلم، فالعلم الصحيح عنده هو القائم على التجربة والملاحظة.

والمنهج عنده يتمثل في الاستقراء الناقص مقابل الاستقراء الكامل أو التام الذي كان يظنه أرسطو مولّد اليقين في العلم. ولذلك فالمعرفة الحسية لم تعرف تقدما يذكر منذ عهد اليونانيين.

ويكمن فضل بيكون في دعوته إلى إصلاح العلوم باستخدام المنهج التجريبي، وفي الروح العقلية والعلمية التي بثها حتى صار من رواد حركة التنوير ومن دعاة الفصل بين اللاهوت والعلم في القرن الثامن عشر

إن طريقة أي علم من العلوم يخضع لطبيعة الموضوع المدروس ولما كان موضوع العلوم الطبيعية حسي، كانت الطريقة حسية تجريبية، حيث يبدأ العالم بالمشاهدة (الملاحظة) ثم يعمد إلى تحليل المعقد من الظواهر ووضع تعليم مؤقت للظاهرة المدروسة. ومن ثمة يتبين ماكان قد افترضه عن طريق التجربة ليصل إلى قانون. وهذا ما اصطلح عليه العلماء بالاستقراء الذي يعني لغة: التتابع أما اصطلاحا: الحكم على الكل لثبوت ذلك الحكم في الجزئي[3]. وهذا ما أشار إليه كلود بيرنار محددا خطواته في قوله: "الحادث يوحي بالفكرة والفكرة تقود إلى التجربة والتجربة تختبر الفكرة"[4]. وهنا تبرز هذه الخطوات التي أصبح اليوم متعارفا عليها هي :

ملاحظة ← فرضية ← تجربة ← قانون.

أ/ **الملاحظة**: وهي إحدى صور المعرفة التجريبية، تقوم على التوجه إلى الشيء في يقظة وانتباه، للإطلاع عليه كما هو دون تبديل أو تغيير[5]. ذلك أن دراسة الظواهر الطبيعية تبدأ بالمحسوس وتنتهي إلى المعقول. فالعقل لا يستطيع أن يحكم على الأشياء والظواهر في حالة غيابها، بل لابد من مشاهدتها ومراقبتها في وضعها الثابت، مدققا في ذلك ومستخدما مختلف الوسائل التقنية ومن بين شروطها الدقة والموضوعية...

ب/ **الفرضية**: هي فكرة يأخذ بها الباحث في بداية برهانه... وفي العلوم التجريبية تعد تفسيرا مؤقتا لحوادث الطبيعة[6]. وتعد الفرضية خطوة نحو المجهول حيث ينتقل فيها العقل من العالم المحسوس إلى العالم المعقول. والعقل لا يطمئن إليها حتى تثبتها التجربة وتؤكد صحتها، وإن كذبتها نبذها

واخذ بالبحث عن غيرها. ومن شروطها ارتكازها على الملاحظة، كما ينبغي أن لا تحمل تناقضا في حد ذاتها ولا تكون متناقضة مع القوانين التي سبقتها، مع قابليتها للتجريب.

ج/ **التجربة:** هي عملية اصطناعية يهيلها المجرب بنفسه، غايته الوصول إلى قانون يعلل به ما شاهده من حوادث الطبيعة[7]. فهي تكرار للحادثة الطبيعية في شروط مصطنعة لكي تسهل ملاحظتها يقول كلود بيرنار: "إن للملاحظ والمجرب هدفا واحدا مشتركا، وهو مشاهدة الحوادث وضبطها بالوسائل العلمية الدقيقة، إلا أن هناك فرقا واحدا بينهما وهو أن المجرب لا يشاهد الحوادث كما هي عليه في الطبيعة، بل يشاهدها في ظروف يهيئها هو بنفسه"[8]. ولذلك يمكن اعتبار التجربة ملاحظة علمية ثانية لكنها أكثر دقة ووضوحا، ويشترط فيها أن تكون مسبوقة بالفرضية.

د/ **القانون العلمي:** يقصد به العلاقة الثابتة بين ظاهرتين أو أكثر. ويمكن أن يعبر عنها بعلاقة رياضية (كمية). ويطلق على الصيغة التي تعبر عن العلاقات الثابتة بين الظواهر بالقانون العلمي، كقانون سقوط الأجسام. وهو قانون طبيعي أوحت به الملاحظة وتحققه التجربة.

2 في دعوة ابن خلدون إلى المنهج التجريبي:

عند دراسة مقدمة ابن خلدون يتضح لنا فلسفته الواقعية التي لم نلمس فيها أصول المنهج التجريبي من خلال المبادىء التالية:

أ/ **مبدأ الحس:** يقول ابن خلدون في الفصل الثاني عشر في العقل التجريبي وكيفية حدوثه:"هذه المبادىء التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن **الحس** كل البعد، ولا يتعمق فيها الناظر، بل كلها تدرك بالتجربة"[9]. وما يؤكد ذلك استعمال ابن خلدون مصطلح **الشهادة** الذي يقابله حديثا مفهوم **الملاحظة** في المنهج التجريبي. يقول في الفصل الثالث عشر في علوم البشر وعلوم الملائكة: "إننا نشهد في أنفسنا بالوجدان الصحيح، وجود ثلاثة عوالم. أولها: عالم الحس ونعتبره بمدارك الحس الذي شاركنا فيه الحيوانات بالإدراك، ثم نعتبر الفكر الذي اختص به البشر فنعلم منه وجود النفس الإنسانية علما ضروريا بما بين جنبينا من مدارك العلمية التي هي فوق مدارك الحس، فتراه عالما آخر فوق عالم الحس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التي تلقى في أفئدتنا من عالم فوق عالمنا وهو عالم الأرواح والملائكة"[10].

فعالم الحس هو ما عبر عنه ابن خلدون في الفصل الثاني عشر بالعقل التجريبي، إنه يدرك بالتجربة الصحيحة المعالم الجزئية التي لا تبعد عن الحس كل البعد ولا يتعمق فيها الناظر بل يتنكب بها عن القبيح إلى الحسن لإيقاع أعماله على وجوه سياسية وقوانين حكمية. ولذلك فكل ما جاوز الحس فإن العقل التجريبي لا يشتغل عليه كعلوم الهندسة، السحر، علوم الدين والعلوم التي يأخذ بالسماع.أما العلوم ذات الطابع الحسي ففيها يتجلى ميدانه، كالطب والبناء، الفلاحة، الصناعة وأحوال المجتمع.

ب/ مبدأ التحقق في الواقع: يقول ابن خلدون في المقدمة في الفصل الثامن والعشرين، علوم السحر والطلسمات: "ورأينا **بالعيان** من يصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء مقابلة لما نواه وحاوله موجود بالمسحور"[11].

ويقول أيضا:" **وشاهدنا** أيضا من المنتحلين بالسحر وعمله من يشير إلى كساء أو جلد، ويتكلم عليه في سره، فإذا هو مقطوع متخرق. ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج، فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض"[12].

ويقول أيضا: "وكذلك **رأينا** من عمل الطلسمات عجائب في الأعداد المتحابة"[13]. هذا المبدأ ويقابله في المنهج التجريبي مبدأ الاختبار أو التجربة، أو القصد في ذلك عند ابن خلدون أن العلوم التي يمكن إنزالها إلى الواقع **بالمشاهدة والعيان** يستطيع الدارس أن يحقق النظر في **ثباتها أو تغيرها**.

فمن غريب ابن خلدون أنه لم يأخذ في معرفته هو بالأمور السحرية بمجرد السماع (على الرغم من كونها ما يجاوز الحس). من ذلك انه لم يثبت القدرة بالسحرية إلا باشتراط التحقق في الواقع. ويظهر ذلك عند ما يقول: "لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه بذلك.وأخبروني..."[14]، فهو يشترط اللقاء والمشاهدة بالإضافة إلى الأخبار.

فعندما كان ابن خلدون يأخذ بالعقل التجريبي، فإن المعرفة كانت تؤخذ من الكنيسة في القرون الوسطى. فالنصوص أو الجاهز المعرفي كان متعاليا. في حين أن ثورة ابن خلدون تتمثل في جعل النص النظري متعاليا في المعرفة النظرية التجريدية، لكن المعرفة الحسية الواقع فيها يعلو على النصوص السابقة. فابن خلدون يجعل الواقع هو الذي يصدق النص أو يكذبه.

وبالتالي فإن ابن خلدون يمكن القول أنه: "يمثل نقطة تحول في التفكير الإسلامي فحسب بل في التفكير العالمي الذي اشتغل بالميتافيزيقا عدة قرون دون جدوى"[15].

ج/ مبدأ اصدق والكذب: (الأخذ بمعيار الصدق والكذب).

ويقابله عند أنصار المنهج التجريبي، المبدأ الأخير من مراحل المنهج وهو النتيجة ووضع القانون.

والقصد عند ابن خلدون أن تمام مرحلة التحقق في الواقع هي التي تمنح الدارس التأكد من الواقعة المدروسة، فإن صدقها الواقع تكون صادقة وإن كذبها الواقع تكون كاذبة.

فالصدق والكذب هنا مختلف عن الصدق والكذب في الأمور المنطقية والسماعية لأنها لا تنزل إلى الواقع.

يقول ابن خلدون في المقدمة، في الفصل الثاني عشر المتعلق بالعقل التجريبي وكيفية حدوثه: "بل كلها تدرك **بالتجربة** وبها يستفاد لأنها معان جزئية تتعلق **بالمحسوسات** وصدقها وكذبها يظهر قريبا في الواقع، فيستفيد طالبها حصول العلم من ذلك"[16].

3/ في توظيف ابن خلدون للمنهج التجريبي:

لقد قسم ابن خلدون المعرفة إلى معرفة حسية ومعرفة نظرية، وألزم المعرفة الحسية بالعقل التجريبي منها.

وهذه المعرفة كلها مبنية على النظرة الواقعية التي نلمسها في متون المقدمة فكم مرة يستعمل مصطلح المشاهدة والملاحظة للوقائع المادية.

فوصفه للصنائع لدليل كاف على ملاحظته العلمية الدقيقة التي تحيط بالظاهرة من كل جوانبها.

يقول ابن خلدون: "اعلم أن **الصنائع** في النوع الإنساني كثيرة، لكثرة الأعمال اليدوية المتداولة في العمران، فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذ العد.... فأما الضروري كالفلاحة، البناء والخياطة والتجارة والحياكة، وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب"[17].

إن حصره لهذه الصنائع تدل على عقل واقعي له دراية واسعة بها، فهو ينقل لنا الواقع كما هو كائن أو كما هو موجود لا كما ينبغي أن يكون كما فعل سابقوه أمثال أفلاطون في الجمهورية والفارابي في المدينة الفاضلة.

وقد عبر عن ذلك ابن خلدون **بمصطلح الصنائع**، والصناعة كما هو معلوم ذات طابع مادي، إنها التطبيق النظري للعلم. فالصنائع دليل على تراكم مجموعة من المنجزات المعرفة في بعديها النظري والتطبيقي (التجريبي) وهذا ما يعرف اليوم بالتقنية في الدول المتقدمة.

ثم نجد ابن خلدون في مقدمته يقدم لنا نموذجا حول العمران، فعمر الدول كعمر الإنسان لأن عمر الدولة لا يمكن التحقق منها في الواقع، فاستنبط القانون من ملاحظاته للإنسان وأسقطه وعممه على عمر الدول وهنا يتضح لنا جليا سبق ابن خلدون في القول بالتعميم المبني على التجربة والذي يعد من سمات الاستقراء الناقص أو العلمي.

يمكن القول أنه حينما يرتبط الأمر بالواقع، عند ابن خلدون، فإنه يظهر لنا عقلانيا متفلسفا، وأداته العقل الذي قاده إلى استعمال الاستقراء والتجربة في استخراج القوانين العامة والنظريات الثابتة من جزئيات الواقع وتفاصيل الأحداث وتقلبات الدول[18].

4/ في أن للمنهج التجريبي من خصوصيات المعرفة الإسلامية:

يبقى علينا التساؤل في الأخير عن المصدر الذي استمد منه ابن خلدون صرامة المنهج التجريبي؟ هل أخذه من اليونان؟ أم أخذه من الإسلام؟ أم من تفاعل الحضارات في إطار الخلافة الإسلامية؟

يظهر أن ابن خلدون قد تأثر بفلاسفة المسلمين خاصة فلاسفة المغرب في اقترابهم من الواقع العلمي، وأكثر تأثره بابن رشد في تعليله للأمور تعليلا طبيعيا وفقا لقانون السببية، إلا أنه رغم ذلك يختلف عنهم في تميزه بتفكير علمي واقعي عميق.

إنه يمثل الحد الوسط بين المدرسة الصوفية التي ينتمي إليها والتي تلغي الأسباب وتعيدها إلى سبب واحد هو الله، وبين المدرسة العقلانية التي تجعل الحوادث سلسلة سببية منقطعة عن السبب الأول ففي العقلانية السبب أهم لا إرادة له، هي سلسلة آلية بينما عند المتصوفة يلغون السبب

لصالح الإرادة الإلهية ولذلك فان ابن خلدون يمثل انتصار العقل الإسلامي الذي يدعو إلى دراسة الأسباب الحسية دون إغفال المسبب الأول، فهو يأخذ بالسببية مع إرجاعها إلى السبب الأول.

إن الناظر في التكوين المعرفي عند ابن خلدون يجعل الانتساب إلى الثقافة الإسلامية علامته المميزة (فهو قاضي القضاة يحكم الواقع باستدعاء الشهود وهو المدرك للمنهج القرآني الداعي إلى التبين والشهود). كل ذلك دفعه إلى أن يستوحي المنهج التجريبي من المعرفة الإسلامية والذي يعد من خصوصياتها.

إننا نجد أن القرآن الكريم قد ساهم في صياغة عناصر وقواعد منهج الاستقراء التجريبي بوضع قوانينه التي يستعان بها ويستند إليها في فهم حقيقة الظواهر الكونية.وقد عبر عن تلك القوانين بالأسباب ... فكل ظاهرة إنسانية أو غير إنسانية "طبيعية" أسباب ومسببات ومعرفة الظاهرة أو المسبب وكشف حقيقتها إنما يتوقف على معرفة السبب[19]. قال الله تعالى: "وقد أحطنا بما لديه خبرا ثم اتبع سببا"[20] وقال أيضا: "وآتيناه من كل شيء سببا فاتبع سببا"[21] ثم نجد القرآن الكريم قد حدد عناصر المنهج الاستقرائي بالحس والمشاهدة والنظر في مخلوقات الله من ظواهر إنسانية وغير إنسانية للإحاطة بالحقائق العلمية. فالقرآن الكريم دعا إلى المشاهدة والنظر في ملكوت السماوات والأرض. قال تعالى: "قل انظروا ما في السماوات والأرض"[22] وقال أيضا:"أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء"[23] وقال كذلك:"أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت"[24]. فالسؤال هنا جاء بصيغة كيف؟ وليس لماذا؟ إنه من الأسئلة التي يطرحها العلم والتي تبحث عن الطريقة والكيفية التي بها خلقت الإبل أو كيفية رفع السماء...

وإذا رجعنا إلى التراث العلمي عند المسلمين لوجدنا أن من خصائصه الاتصاف بالأمانة العلمية والتجرد الموضوعي في البحث عن الحقائق العلمية. يقول ابن الهيثم واصفا طريقته في البحث العلمي كما جاء في مقدمة كتاب "المناظر": "ونبتدئ في البحث **باستقراء الموجودات،** وتصفح أحوال **المبصرات** وتمييز **خواص الجزئيات،** وتلقط **باستقراء** ما يخص البصر في حال الإبصار وما هو مطرد لا يتغير، وظاهره لا يشتبه من كيفية الإحساس ثم نترقى في البحث

والمقاييس على التدرج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل في جميع **ما نستقرؤه**، ونصفه، استعمال **العدل** لا **إتباع الهوى**..."[25].

وليس من الغرابة في شيء من أن يشهد مفكر الغرب بأصالة المنهج التجريبي عند المسلمين، يقول العلامة "بويفلوت" :"إن مناقشات عدة تقوم حول واضع المنهج التجريبي، وأن هذه المناقشات تعود في آخر الأمر إلى تصور فاسد محرف لمصادر الحضارة الأوروبية أما مصدر الحضارة الحقة فهو منهج العرب التجريبي[26].

وكخلاصة لما سبق ينبغي أن ننوه بتميز ابن خلدون عن سابقيه بروح علمية واقعية تبحث عن سبب طبيعي لكل شيء. لقد درس المجتمعات التي عاشرها فجاءت نظرياته نتيجة ملاحظة وتفكير طويلين في الواقع الذي عاشه[27]. وبالتالي يمكن القول أنه من السباقين للمنهج التجريبي فقد سبق فرانسيس بيكون في دعوته إلى التجريب.

الهوامش:

[1] الدكتور جميل صليبا، المنطق، منشورات عويدات، لبنان، الطبعة الثانية، 1967 ، ص:67.

[2] الدكتور محمد محمد قاسم، المدخل إلى فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، سنة:2003، ص:64.

[3] الدكتور جميا صليبا، المرجع نفسه، ص:250.

[4] الدكتور جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص:71.

[5] الدكتور جميل صليبا، المرجع نفسه، ص:415.

[6] الدكتور جميل صليبا، المرجع نفسه، ص:143.

[7] الدكتور جميل صليبا، المرجع نفسه، ص:244.

[8] الدكتور جميل صليبا، المرجع السابق (المنطق)، ص:229.

[9] العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1982، ص:841.

[10] العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، المرجع نفسه، ص:843.

[11] العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، المرجع نفسه، ص:927.

[12] العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، المرجع نفسه، ص:

[13] العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، المرجع نفسه: ص:227.

[14] العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، المرجع نفسه، ص:

[15] الصغير عمار، الفكر العلمي عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة 3، الجزائر، 1984، ص:19.

[16] العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، المرجع نفسه: ص:841.

[17] العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، المرجع نفسه، ص:722.

[18] الأستاذ خليل شرف الدين، في سبيل موسوعة فلسفية، منشورات دار مكتبة الهلال، 1983، ص:119.

[19] الدكتور غازي عنايه، منهجية البحث العلمي عند المسلمين، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، الطبعة الأولى، 1985، ص:114.

[20] من سورة الكهف، الآية 92،91.

[21] من سورة الكهف، الآية: 85،84.

[22] من سورة يونس، الآية:101.

[23] من سورة الأعراف، الآية: 185.

[24] من سورة الغاشية، الآية: 17، 20.

[25] الدكتور غازي عنايه، المرجع نفسه، ص:115.

[26] الدكتور غازي عنايه، المرجع نفسه، ص:115.

[27] الدكتور رمزي نجار، الفلسفة العربية عبر التاريخ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1979، ص:371.